

## تأكيد الذات من خلال فترات من تاريخ المغرب

عبد الكريم غلاب

الموقع الجغرافي والموضع الاستراتيجي للمغرب جعله محط أنظار الذين يتطلعون إلى الآخر، تمكيناً لذاتيتهم أو دفاعاً عن أنفسهم، أو فراراً من الانهيار الذي سببته عوامل الشيوخوخة أو المضايقة، أو استجابة لطموح سياسي أو اقتصادي أو تجاري أو عسكري أو امبراطوري لا يحققه قصر الموقع الأصلي أو رغبة في توسيع رقعة الحكم التي لا تحقق الاكتفاء الغذائي أو تسويق الفاضل من الإنتاج، أو رغبة في امتداد فكري أو إيديولوجي أو عقدي ديني، استجلاباً لأنصارها أو دفاعاً عنها تحسباً لخصومة أو تطويق أو ضمور وشيوخوخة، أو اشغالاً لقيادات عسكرية وسياسية وتمكيناً لها من تحقيق طموحاتها خارج مركز الدولة حتى لا تعمل المنافسة عملها في الإذابة بمركز الدولة وبالقيادة الرئيسية فيها.

لهذا كان المغرب الكبير محط أنظار الفينيقيين واليونان والرومان والوندال والرومان البيزنطيين ثم العرب، رغم بُعد المسافات بين مراكز هذه الدول وموقع المغرب وصعوبة المواصلات والأخطار التي كانت تهدد البعثات والجيوش والفاحين.

والمؤرخون الغربيون في معظمهم يفضون الطرف عن هذا الموقع الجغرافي والموضع الاستراتيجي ليحتكموا إلى الوقائع ثم يحكموها في الحكم على المغرب كتاريخ وكحضارة، حتى يخلصوا من ذلك إلى أن الذين صنعوا تاريخ المغرب الكبير هم الأجانب من الفينيقيين حتى الفرنسيين، والذين منحوا هذه البلاد جزء من حضارة هم هؤلاء الذين يعترف التاريخ لهم بأنهم بناء حضارة.

النتيجة الطبيعية عندهم هي أن المغرب محكوم عليه - بفعل التاريخ - ألا يكون إلا بغيره، وإذن فمن الطبيعي أن يكون هذا الغير هو الأمة أو الدولة التي تملك قوة سياسية أو عسكرية أو طاقة حضارية.

لو جاء هذا الحكم من باحثين محايدين - أو لا منتمين - لكان من حقه، ومن واجب المدافعين عن تاريخ بلادهم، أن يناقشوه، ولكنه حينما يأتي من مؤرخين وضعوا في مقدمة أهدافهم الدفاع عن «الحضارة الاستعمارية» فسيسقط الحق والواجب من إطار المناقشة ليبقى الحق والواجب متعلقين بالذين يكتبون تاريخ بلادهم الوطني بعقلية متحررة من استلايين : استلاب مؤرخي الحضارة الاستعمارية من جهة، واستلاب تمجيد التاريخ الوطني مهما تكن عثراته من جهة أخرى.

وقد وقع تاريخ الغرب ضحية هذين الاستلايين. فالذين كتبوه، أو حاولوا ذلك، من أبناء المغرب كان كثير منهم ضحية استلاب تضخيم الذات، أو الانسياق وراء أحداث جزئية لا يخلو منها تاريخ أي أمة أو شعب استناداً إلى أن اليوميات هي وحدها التاريخ، فكان تاريخ المغرب مجموعة من الأحداث والمصادفات التي لا يتحكم فيها التاريخ بمقدار ما تتحكم فيها الصدفة، أو اليومي المعيش في بلاد تفتقر إلى مركزية الحكم، وقوة السلطة، وكرم الطبيعة الإنتاجية، كما تفتقر إلى علمية التحكم في توجيه الاقتصاد وتعبئة الإمكانيات الغذائية والتحكم في التبادل التجاري.

ومعظم الدول في العصور الأولى والوسطى كانت من هذا النوع إلا الامبراطوريات الكبرى.

والذين كتبوا التاريخ المغربي من الأجانب كان كثير منهم ضحية استلاب الرؤية السياسية التبريرية التي جعلت التاريخ في خدمة الاستعمار. وليس أسهل من البحث عما يرر وجود كيان حضاري منهار في المغرب، حتى أنه لم يستطع أن يصمد في وجه للغزوات التاريخية الكبرى.

والمغرب أكد ذاته الحضارية أو ما مكنته عصره وموقعه وممكناته من أن يؤكد منها، في وجه التحدي الحضاري، فقبل ما رأى، أو ما أمكنه أن يقبله، ورفض ما رأى، أو ما أمكنه أن يرفضه، أو ما لم ينسجم مع ذاتيته، أو ما حاول الآخرون أن يفرضوه عليه بالقوة.

ولكنه أكد ذاته من المنطلق السياسي والعسكري، فلم يصطبغ قط - كوطن أو كشعب - بالفينيقية أو الرومانية أو الوندالية. رفض الحكم كحكم أجنبي كلما أمكنه ذلك. وتعامل معه كلما كان التعامل طريق التخلص. وناور بين خصمين : الفينيقيين والرومان كل منهما يطمع في غلبة الآخر على أرض المغرب ليكون - في الغالب - مع العدو والجديد ضد القديم، لا خيانة للقديم وتملقاً بالجديد، ولكن أملاً في أن تتضافر العوامل على هزيمة القديم فيتخلص منه لتبدأ مرحلة أخرى جديدة لمقاومة الجديد.

ذلك مظهر من مظاهر تأكيد الذات.

ظاهرة مهمة لا بد من الإشارة إليها هي أن حضارة العهود القديمة لم تصمد منها أمام التاريخ إلا الحضارات الكبرى المتميزة بالفكر أو بالقوة العسكرية أو بالانسياح الاستعماري.

وقد ظهر في كل منها أبطال كبار كتبوا تاريخ بلادهم بالمواقع العسكرية الكبرى، أو ظهر فيها مفكرون أو أنبياء أو حكماء تركوا بصماتهم على التاريخ الفكري. وإذا ذكر المؤرخون المحدثون أو قوموا حضارات العالم وتاريخه لا يكادون يذكرون إلا بعضاً منها : الصين ومصر وفارس والهند وفينيقيا (ومعها قرطاج) واليونان والرومان. ويسكت التاريخ حتى يأتي العرب، ليس بالرسالة المحمدية فحسب، ولكن أيضاً بالفتوحات الكبرى ثم بالحضارة الفكرية والمادية. ثم يسكت التاريخ مرة أخرى حتى يأتي عصر النهضة فتبرز أوروبا الغربية بعد أن انتهى دور جزئها الجنوبي الشرقي الوسطى : اليونان وروما. وفي أوروبا يتوقف التاريخ.

فهذه نظرة كسول مادنا لا نستطيع أن نقول إنها سطحية. ذلك أن العالم سيكون عقيماً إذا لم ينجب غير هذه المعالم في تاريخه الطويل. وما من شك في أن هذه المعالم فرضت نفسها على التاريخ وعلى المؤرخين، ولكن ما من شك كذلك في أن المؤرخين - أو معظمهم - وقفوا وقفة الإنسان الكسول الذي لا يفتح عينيه وأذنيه إلا عندما يضحج الصوت أو يبهز النور. ولذلك فهو لا يبحث في جوانب من التاريخ عاشت مكتملة أو مؤثرة أو متفاعلة مع هذه الحضارات وإن لم يكن لها شأوها أو عاشت قبلها أو بعدها، وإن لم يكن لها بَهر نورها.

والمغرب من بين هذه البلاد التي جنى عليها الموقع الجغرافي أنها عاشت في ظل التاريخ الضخم لهذه الحضارات، فلم تستطع أن تجاريها، كما لم تستطع أوروبا وآسيا وأمريكا وإفريقيا جميعها، ولكنها مع ذلك لم تكن بدون تاريخ أو حضارة يُؤكِّدُان ذاتها ويمنحانها الوجود المتميز الذي كان له تأثير على كثير من مظاهر التاريخ السياسي والحضاري للشعوب والدول التي تعاملت مع بلاد المغرب.

لا نريد أن نعود إلى عصر ما قبل التاريخ لنشير إلى أن المغاربة أكدوا وجودهم، حيث هم، مستغلين كل طاقات أرضهم، الساحلي منها والسهلي والجبلي والصحراوي. فالوجود الأمازيغي بالقوة والمنعة، الذي عرفته عليه عصور الغزاة، يؤكد ذلك، ولكننا نشير إلى الوجود الذي يعرفه التاريخ.

قبل أن تعرف أقطار المغرب الكبير الدولة كانت القبيلة. ولعل مفهومها لم يكن على نحو ما عرف من مفاهيم القبيلة العرقية أو الجهوية، فقد كانت الحدود القبلية غير معروفة، وكان المجتمع الرعوي والزراعي والصحراوي ذا طابع اقتصادي متحرر من سيطرة مجموعة تنتمي إلى هذه الفخذة أو تلك. وربما جاءت القبيلة - بالمفهوم الذي عرفته العصور المتوسطة في التاريخ - عن طريق الحكم والسلطة. فحينما يفرض «شيخ» قوى نفوذه على أبنائه وأقربائه تتكون منهم القبيلة، يرث الحكم فيها كابر عن كابر. ويبدأ التحزب للسلطة داخل المجموعة، كما بدأ بعد ذلك داخل الدولة. وهكذا كانت القبيلة صورة مصغرة عن الدولة.

والقبيلة لم تنشأ نشأة عرقية. فمنذ ظهور الحضارات الأولى أخذت فئات بشرية تأخذ طابع التحضر. وراحت كل فئة تتطور في المحيط الذي ارتضته لها مقراً، وفقاً لعوامل زمنية ومكانية خضعت لها، ولؤثرات حسية وخلقية عرفت بها ودرجت عليها<sup>(1)</sup>.

والقبيلة نشأت في المغرب - كما نشأت في مختلف البلاد التي مرت من مرحلة القبيلة إلى مرحلة الدولة. وهي مرحلة مرت منها معظم الشعوب المتحضرة - نشأت في المغرب بدائية من الأسرة ثم العشيرة ثم العمارة أو البطن ثم القبيلة التي تضم بطناً أو عدة بطون من غيرها انحازت لها وانضافت إليها في أوقات قرية أو بعيدة، فأصبحت معدودة منها بحكم الحلف والولاء<sup>(2)</sup>.

وقد يكون هذا التطور أسلم القبيلة إلى أن يكون لها محيطها الخاص، منعزلة عن غيرها من القبائل، أو شبيهة بالمنعزلة. فلها في حالة الاستقرار ترابها الوطني أو مجاها الحيوي في حالة الرحلة، وتمنع غيرها من القبائل أن تتجمع مراعيه أو تستقر فيه، ولها شيخ تُجمع كلمتها عليه، وعُرف يبنها بالغيث وجماعة تنظر في مصالحها، وقانون يحدد الأحكام، ومطامر عمومية لحزن الغلال، وأسواق أسبوعية، ومواسم وأعياد، وعدد من العادات والتقاليد الاجتماعية. والفرد شديد الإخلاص لقبيلته شدة إخلاص القبيلة له<sup>(3)</sup>.

ويبدو أن القبيلة نظام عائلي متطور، عامل التطور فيه اقتصاد اجتماعي دفاعي (دفاع مصلحة اقتصادية أو أمنية) ولا يعتمد على منطلق عرقي. ولذلك فكل اتجاه عرقي للقبيلة يعتبر انحرافاً متخلفاً عن أصلها الحضاري. وربما نبع هذا التخلف عن الاختلاط الحضاري بالشعوب الوافدة. وهناك يتدخل العامل السياسي لينح للقبيلة البعد السلبي. الوافدون في الغالب غزاة يريدون أن يركزوا غزوهم بالسلطة، والمواطنون الأصليون

يدافعون عن أنفسهم بالتكتل. وليس من وسيلة للتكتل إلا الاعتماد على الأصل في القبيلة. وتتسرب العرقية المقيتة من البعد السياسي السلطوي ما دام يتسم بسلبيات القوة والعنف والعدوان.

وفي المجتمع المغربي كانت القبائل تتحالف لتؤمّر عليها شيخاً، وقد يكون من غيرها (ليصبح ذلك رئيس دولة). لا تحتكم في ذلك للعرقية، بل ولا حتى للقبيلة كما حدث بالنسبة لكثير من رؤساء الدول المغربية. وأظهر مثل على ذلك الدولة الإدريسية والسعدية والعلوية، وبشيء من التجاوز المرابطية والموحّدية والمرينية، ولو أن السلطة والقوة لعبت دورها في هذه الدول الأخيرة.

عرف المغاربة إذن نظام الدولة في شكله البدائي قبل القرطاجنيين. ووظفوا هذا النظام لتأكيد الذات وبذلك :

– قاوموا الغزو اليوناني للشواطئ الجنوبية الشرقية (برقة) من المغرب الكبير بقيادة «أدريكان» في القرن الخامس قبل الميلاد.

– أنشأوا ممالك في مختلف مقاطعات المغرب الكبير فالملك «إيليماس»، أسس دولة «المازيليين» في القرن الثالث قبل الميلاد و«سيفاكس» و«ماسينيسا» و«باكّا»، وقد عاشوا في القرن الثالث قبل الميلاد، كل منهم كان يحكم منطقة. وكل منهم كان يأخذ موقفاً ربما مختلفاً عن الآخر من الأجانب الذين كوّنوا لهم دولة في المنطقة بالتحالف مع قرطاجة أو محاربتها. وكالتحالف مع روما ضد قرطاجة في الحروب البونيقية. كل من المتحاربين كان يطمع في أن يحالفه ملك من الأمازيغيين ضد خصمه، والذي كان يحق على قرطاجة كان يتحالف مع روما ضدها، مثل ما تحالف «ماسينيسا» مع روما وتحالف خصمه «سيفاكس» مع قرطاجة.

ومن هؤلاء الملوك «بوكوس الأول» ورث مملكته عن باكّا ومنهم الملك «يوكرتين» المازيلي وقد حارب الرومان ليخلص البلاد منهم. وكان من أشد المعادين لروما حتى هزمه الرومان وأسروه وقضوا عليه سنة 105 ق.م. ومنهم الملك «يوبّا الأول» الذي طمع في أن يوحد كل أراضي المغرب تحت إمرته.

قام هؤلاء الملوك بواجبهم لإثبات الذات في وقت صراع أجنبي اعتبروا أن بلادهم كانت أحد أهدافه وضحاياه الأساسية. ولذلك امتاز عملهم وتدخلهم بالظواهر الآتية :

1 – استغلال الصراع بين روما وقرطاجة لصالح المغرب.

2 - كان المبدأ - فيما يبدو - مخالفة عدو للتخلص من عدوه ولذلك حينما كان أحدهم يحالف قرطاجة ضد روما، فإنما ليساهم في إبعاد الاحتلال الروماني عن المغرب، ولو بتغلب قرطاجة. وحينما كان أحدهم يحالف روما فليساهم في تحرير المغرب من قرطاجة ولو لصالح روما. وفي هذا الإطار حالف بعضهم الوندال للتخلص من روما.

وهذه الظاهرة القديمة التي تجلت عند المغاربة لمواجهة الاحتلال استمرت في العصر الحاضر، ليس عند الشعب المغربي فقط الذي كان قبيل فترة الحماية يناصر أو يتعاطف مع ألمانيا ضداً على فرنسا، مع أنهما معاً كانا يطمعان في احتلال المغرب، ولكن عند كثير من الشعوب الأخرى التي وجدت نفسها تتعاطف - مثلاً - مع ألمانيا في الحرب العالمية الثانية ضد دولة الاحتلال، الإنجليزية كانت أو فرنسية كما تجلى ذلك عند كثير من الشعوب العربية.

3 - كان هذا التردد والاختلاف بين الملوك في التحالف مع هذا الخصم أو ذاك سبباً في أن الخصم نفسه استغله في بعض الفترات ليغري قائداً من قواد الأمازيغيين بآخر. فكانت لذلك نتائج خطيرة على الممالك المغربية :

- استطاعت روما بذلك - مثلاً - أن تحارب حلفاءها بعد أن يكونوا قد قضوا على خصومها، وأن تقضي عليهم وتستولي على مزيد من الأراضي المغربية والقضاء على الممالك كلها. وأبقت على مملكة المغرب «موريتانيا» تحت حمايتها كما فعلت مع يوبا الثاني الذي ظل عميلاً لها حتى وفاته.

- لم يستطع المغرب أن يتحرر أو يتوحد حتى انهارت قوى خصومه جميعاً : القرطاجيين والرومان ثم البيزنطيين الذين أنهى البربر والعرب وجودهم في المغرب. المشكل الأساس في تقويم ما للبلد المحتل وما لدولة الاحتلال هو أن دولة الاحتلال هي التي تكتب التاريخ في الغالب. وذلك نتيجة تطور يخلقه الاحتلال نفسه، أو هو عهد جديد نشأ يرغب منشؤه في إثبات وجودهم، ليس فقط عن طريق قوة الاحتلال أو سيطرة الإدارة أو اللغة أو مظاهر الحضارة الأخرى، ولكن أيضاً عن طريق طمس الواقع الذي وجدوه في البلاد التي احتلوها وطمس تاريخها. كذلك فعل الاستعمار الحديث في مختلف بلاد الحضارات من الهند حتى مصر حتى بلاد المغرب الكبير والبلاد الأفريقية جميعها. ولعلمهم كانوا يحاولون حتى مع الحضارة الصينية أو اليونانية لو استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

والذين هاجموا المغرب من الفينيقيين والرومان حتى الفرنسيين دأبوا على تجريد المغرب من كل مظهر حضاري. ودأب المؤرخون الأجانب الذين كتبوا تاريخ هذه

البلاد، وهذه الحقبة بالذات أن جردوا بلاد المغرب - تقريباً - من كل مظاهر الحضارة لينسبوها في الغالب إلى الفينيقيين والرومان، وقبلهما إلى الفترة القصيرة من التدخل اليوناني، وليس ذلك لأن هذه شعوب الاحتلال الزاحفة تميزت بمظاهر حضارية متميزة فحسب، ولكن كذلك لأنهم يريدون أن يثبتوا أن بلاد المغرب التي كانت فيما يزعمون، مجردة من كل وجود حضاري، وهي مدينة لبعض مظاهر الحضارة للأجانب، هي نفسها التي وجدها الاستعمار الحديث ليعطيها مظهرًا حضاريًا. فبلاد المغرب في رأي كثير من المؤرخين المحدثين تضم «جنساً ليست له شخصية إيجابية... وقد صاحبت سلسلة من الخيبات الصغيرة تولدت عنها خيبة مطلقة» كما قال جوثييه.

وإذا كنا لا نتأثر بهذه الرؤية العدمية المغرضة التي تصور بلاد المغرب بصورة سلبية، فإننا لا نذهب مع ابن خلدون الذي يجعل البربر أهل كل فضيلة. إنه لا يبعد كثيراً عن الحقيقة إلا اندفاعاً من الرغبة في تضخيم الذات. وجوليان (تاريخ افريقيا الشمالية) حاول أن يتجرد من تأثير المؤرخين الغربيين الذين سبقوه فاستخلص من دراسته للتاريخ القديم لافريقيا الشمالية في فصل «مدينة البربر» قائلاً: أما بلاد المغرب فقد بقيت هي هي غيرة على شخصيتها. وخضعت إلى السيطرة «المادية» لشعوب أجنبية دون أن تتأثر «بروحها».

لن نعود - ونحن نحاول أن نسجل «تأكيد الذات» إزاء الغزو العسكري والثقافي والحضاري - إلى ما سجله التاريخ، ونقله المؤرخون المنصفون (فصل مدينة البربر عند جوليان) ولذلك نقفز من هذه الحقائق إلى الحقيقة الأخرى التي يسجلها التاريخ المنصف دون عقيدة تحت عنوان: ماذا استفاد المغاربة من الاحتلال الأجنبي؟

تأكيد الذات لم يكن بالعمل السلبي أو بالصراع ضد الاحتلال فحسب، ولكن الأمازيغيين الذين تعاملوا مع قرطاجة معاملة طيبة في معظم فترات وجودها في المغرب، وتعاملوا مع الرومان إيجابياً تارة وسلبياً تارة أخرى، استفادوا من الاحتلال الأجنبي على غرار ما استفادوا من القادمين الأجانب فيما بعد، عرباً كانوا أو أوروبيين.

ومن خطأ الرأي نسبة كل ما نشأ أو ترعرع من مظاهر الحضارة على عهد القرطاجيين والرومان إلى هؤلاء الوافدين. فقد دأب الكثيرون على نسبة كل تطور فكري أو حضاري أو سياسي إلى الذين بنوا الامبراطوريات من اليونان في القديم حتى الفرنسيين في العصر الحديث.

فالمعروف أن المغاربة كَوَّنوا ممالك مهمة في مقدمتها الممالك الثلاث التي سادت في المغرب على عهد الحروب البونيقية وهي مملكة موريثانيا في شمال المغرب الأقصى.

وقد توسع نفوذها في بعض فترات حياتها حتى شمال قسطنطينية. ثم مملكتنا «ماسولة» و «مازبسولة» اللتان اقتسمتا نو ميديا (الجزائر). ويقول شارل أندري جوليان : من الممكن أن تكون قبائل مازبسولة التي هي بمثابة الخلية الأم للجامعة القبائلية منحدره من المغرب الأقصى، وقبيلة ماسولة من الأوراس.

قاد هذه الممالك عدة ملوك وزعماء منهم «سيفاكس» الذي تزعم مازبسولة وكان من أعظم الملوك حتى مدت إليه قرطاج يدها وزوجته فتاة من أعلى طبقة أرستقراطية. ومنهم مسينسا الذي كان يتربع على عرش «ماسولة» وقد قامت بين الرجلين منافسة حادة انتصر فيها سيفاكس في البداية، فعاش مسينسا في المنفى، ولكنه ربط مصيره بالرومان في الحروب البونيقية. وانتصر أخيراً فملك قسطنطينية، وحاول أن يجعل من بلاد البربر دولة موحدة مستقلة.

هذا الجانب السياسي اقترن بالجانب الحضاري والاقتصادي :

كان «التوطين» أبرز مظاهر الحضارة. فلم يعد المغاربة رعاة متنقلين. ولكنهم استقروا نتيجة الزراعة التي ازدهرت على يد ملك عظيم مثل «مسينسا». كان المغاربة يزرعون القمح وكل أنواع الحبوب وجعلوا من الأرض أخصب أرض منتجة. ومع الفلاحة تبرز مظاهر التمدن والتحضّر ويقول بعض المؤرخين إن مسينسا هو المسؤول الأول عن الانقلاب الاقتصادي في المغرب الأوسط. وبفضل الفلاحة تجمع الفلاحون في الضيعات والقرى المحصنة. وكان ذلك مظهراً من مظاهر التمدن.

إلى جانب ذلك فقد بنيت الدولة بنظام سياسي للمدن التي كان يحكمها ولاية ويقانون تنظيمي محكم.

وحكم مسينسا الدولة ودافع عنها بجيوش منظمة وأساطيل بحرية. ولذلك كان مهاب الجانب، استعانت به روما وخشيت جانبه قرطاجة، وكان يهدف إلى توحيد بلاد المغرب جميعها ضد النفوذ الفينيقي والروماني ويعلن أن إفريقيا يجب أن تكون للافريقيين.

الفلاحة مظهر حضاري لاكتشاف مصادر القوت الغيبية. وذلك يعني أن الإنسان في المغرب كان ينظر إلى بعيد ويفكر في غير المحسوس ويعيش للغد. ولذلك من السهل أن نقبل أن المغاربة كانت لهم أنظمة اقتصادية واجتماعية وسياسية، وأن حياتهم لم تكن مادية فحسب، ولكنهم كانوا يعيشون حياة فكرية وأخلاقية. وأن تكوين القبيلة والخضوع إلى قيمها ورؤسائها لم يكن دخولاً في حظيرة السلطة والغلبة، ولكنه كان مبعثاً من تنظيم اجتماعي وسياسي لا يبعد كثيراً عن الفكرة في تنظيم الدولة. ومن



هنا كان للقبيلة دور قد تجاوز الحكم والسلطة إلى التنظيم الاجتماعي والاقتصادي. فالقبيلة تنظم امتلاك الأرض الجماعية وإنتاجها واقتسام الناتج عنها بين الذين يعملون في الأرض. وهو تنظيم يؤكد رقي الفكر الاجتماعي والشعور بمسؤولية الجماعة وحقوقها ورعاية مصالحها رعاية مشتركة.

ويدخل في إطار تأكيد الذات الحذر من الغزو. والموقع الجغرافي كالموضع الاستراتيجي كان يفرض هذا الحذر ولذلك استغلوا المناطق الجبلية الوعرة للاحتواء بها كما شعروا بأن عدوا على الأبواب. ويبدو أن طبيعة حياتهم استفادت من هذا الحذر، فأنشأوا ملاجئ (قصوراً وأبراجاً على نحو ما كان يمكن أن تكون القصور والأبراج) للاحتواء بها والحفاظ على ثرواتهم الزراعية من النهب، وعلى بلادهم من الغزو، وعلى الإنسان من الأسر والقتل.

وهذا هو السر في أن معظم الغزاة لم ينفذوا إلى أقطار الجبال وأعماق الأرض، بل ظلوا على الشواطئ دون أن يستطيعوا تجاوزها. يستوي في ذلك اليونان والفينيقيون والرومان والوندال والبيزنطيون والعرب. وكل الذين حاولوا غزو المغرب من الأوروبيين في العصور الوسطى والعصور الحديثة من البرتغاليين والأسبان، وكاد الأمر يتفق ولا يختلف مع الغزو الاستعماري الأخير الذي قام به الفرنسيون والاسبانيون لولا القوة الضاربة التي مكنتهم بعد لأي، وبعد حروب ضارية قدموا فيها كثيراً من الضحايا وصرفوا كثيراً من المجهودات العسكرية والمالية قبل أن يستسلم الذين اعتصموا بالجبال والمناطق الصعبة ومع قوتهم هذه صرفوا نحواً من ربع قرن (من سنة 1907 حتى سنة 1934) قبل أن يستسلم آخر معقل للمقاومة في آيت عطا.

والدفاع عن الذات لم يكن نابعاً عن أنانية فردية، ولا للدفاع عن الذات (الشخص) كما نجد عند كثير من الشعوب البدائية حينما كان الفرد يعيش لذاته، ولكنه كان نابعاً من شعور بالجماعة، القرية كانت خليتها الأولى. الدفاع كان عن مجموع القبائل (الدولة) وذلك أصل الدول التي كونها رؤساء (ملوك) كبار لمواجهة القوات الكبرى على نحو ما أشرنا. هو إذن دفاع عن الوطن وعن المواطن، وذلك سمو في مفهوم الذات على نحو ما نجد عند الشعوب المتحضرة.

والجانب الاقتصادي والدفاعي لم يعيش بين المجموعات المغربية دون مظاهر حضارية أخرى تؤكد الذات وتحمي المنطقة من أن تندمج في الغير وتحافظ على شخصيتها المندجة. ولذلك نجد كثيراً من المظاهر الحضارية عند البربر القدماء التي يتحدث عنها

مؤرخو الحضارات مما يؤكد ظواهر عقلية وفكرية وفنية واجتماعية وأخلاقية وحياتية انتظمت فيها الحياة المدافعة عن نفسها وذاتها ليس دفاع خوف من الموت، ولكن دفاعاً من أجل البقاء على مستوى من الحرية والتطور وإثبات الذات المتكاملة المتميزة.

بهذه الصورة المختصرة يمكن أن ندرك أن الاستعمار القرطاجي والروماني لم يكن وحده صاحب الفضل في تطوير المغرب. بل إن المغاربة أكدوا ذاتيتهم ووجودهم على مدى قرون كانت من أخطر ما عرفه التاريخ من صراع حول إفريقيا.

وسيتحكم تأكيد الذات فيما عرفه تاريخ المنطقة بعد العهد الروماني ابتداء من الفتح العربي حتى الغزو الفرنسي.

الفتح العربي جاء في فترة تطورت فيها الحياة بعد تجربة مع قوات أخرى مختلفة في طبيعة التعامل مع الآخرين. فتجربة التعامل مع القرطاجيين هي غير التجربة مع الرومان غير التجربة مع الوندال أو مع البيزنطيين، فلكل منهم طريقته في التعامل من حيث استعمال العنف أو الاستغلال الاقتصادي. ولكل منهم طريقته في احترام الآخر أو احتقاره والاستهانة به. ولكل منهم طريقته في ربط الغزو بالاستغلال الاقتصادي أو العقدي إلى جانب الاقتصاد ومحاولة فرض دين جديد هو المسيحية. وما من شك في أن العرب حينما قدموا إلى المغرب (الكبير) كانوا يتميزون بالميزتين معا. بعض الفاتحين كان من طبيعته أن يستعمل العنف والقوة والغنائم والأسلاب انطلاقاً من تجاربه في الطريق من الجزيرة حتى المغرب. وبعض الفاتحين كان يستعمل الدعوة ومحاولة الإقناع بالإسلام والوصول إلى كسب أنصار.

ولعل الظاهرة التي تكررت ولم تختلف في مختلف مراحل الغزو - ولنسمه مذكراً بشرياً - هي أن الغازي الجديد يندفع بفكرة مسبقة وهي أنه لا يواجه فقط أهل البلاد الأصليين، ولكنه يواجه أكثر الغازي الذي سبقه. الفينيقيون والقرطاجيون سبقهم اليونان، والرومان سبقهم القرطاجيون والوندال سبقهم الرومان والبيزنطيون سبقهم الوندال، والعرب سبقهم البيزنطيون. ولذلك فكل هجوم أو غزو جديد للمغرب يكون ذا بعدين. وربما كان البعد الأهم الذي كان الغازي يقيم له وزناً هو الغازي الذي سبقه. لأن هؤلاء الغزاة كلهم امتازوا بالامبراطورية الواسعة. والصراع في الغالب كان بين امبراطوريتين كلتاهما تملك قوة عسكرية ومالية ويجدوها تطلع إلى مزيد الاستغلال للأرض الذي تملأ مطامير الغازين حبواً. اتفق ذلك ولم يختلف حتى في عهد الفرنسيين. هل معنى ذلك أن المغرب كان سيظل بمنجاة من افتح العربي لو لم يخضع قبل العرب لكل أصناف الفاتحين ؟

يمكن أن يجاب بالإيجاب لو لم يكن المغرب امتداداً لأرض الجزيرة، وامتداداً لمصر التي كانت - باسمها الكبير، المذكور في القرآن مرتين، وبتاريخها وتجاربها في الامتداد الآسيوي (المكسوس مثلاً) - مطمح الذين تعرفوا على قصة فرعون وموسى الرائعة : قصة الايمان والكفر، من القرآن. والمغرب امتداد لمصر. ثم كان «يمكن» أن يجاب بالإيجاب لو لم يكن الهدف من الفتح العربي هو التبشير بالإسلام ونشره بين السكان.

وانضاف إلى كل العوامل الدافعة إلى الفتح العامل الأساس، وهو أن الامبراطورية البيزنطية السائدة في أقطار الدنيا المعروفة وقت ظهور الإسلام وامتداده شرقاً وغرباً كانت تقف في وجه انتشار العرب، لأنها امبراطورية غازية متمكنة من كل المناطق الغنية والمواقع الاستراتيجية ومتمكنة من قوة عسكرية. ثم إنها تحمي ديناً يعتبر الإسلام تصحيحاً له وتقويماً وخلفاً. والمغرب الذي هو امتداد أرضي - والعرب لم يكونوا قد ركبوا البحر الواسع بعد - وقع في طريق المد البشري العربي والمد العقدي الإسلامي. ولانتصار هذين المدين كان على العرب أن يواجهوا القوة الغازية قبلهم، كما كان عليه أن يواجهوا الشعب الذي يسكن هذه الديار. وما من شك في الاستطلاع الذي كان يقوم به العرب قبل الفتح عرّفهم بكثير من شدة بأس المغاربة، وبكثير من نضال شعب المغرب ضد الغزاة واستماتته في الحفاظ على أرضه ووجوده وشخصيته. ولذلك كانوا على معرفة، ولو قليلة، بالأرض التي كان عليهم أن يمدوا نفوذهم عليها.

واتفقت الظاهرة الأخرى، التي أشرنا إليها عند الغزوات الأخرى، وهي أن المغاربة يتعاملون مع الغازي الجديد بكثير من التفهم واللين كلما عاملهم بذلك من أجل أن يتخلصوا من الغازي القديم. هكذا نجدهم يصلحون عمرو بن العاص فاتح مصر حينما واصل فتحه إلى برقة سنة 25 هـ ليتخلصوا من الحكم البيزنطي. ثم نجدهم يتضامنون، ويساعدون، عبد الله بن سعد بن أبي سرح حينما دخل افريقية (تونس) سنة 27 هـ - 648 م، في مواجهة جيش جرجوريوس والي الدولة البيزنطية والناظر عليها وانتصر عليه. فكان المغاربة في صف العرب يحمونهم لهم تخليصهم من الاحتلال البيزنطي. ونجدهم يتعاونون مع معاوية بن حديج الذي دخل المغرب حوالي سنة 48 هـ - 663 م. ويشعرون بارتياح كبير عندما انسحب العرب (لأسباب داخلية) بعد أن أبعدوا البيزنطيين عن المغرب.

ولكن الانسجام تم بين العرب والمغاربة على عهد عقبة بن نافع الذي بدأ الحملة الشاملة سنة 50 هـ - 670 م. من تونس حتى المحيط. كان في بداية عمله وقبل أن

يشعر بالكيد له ويعزل ويهان فاتحاً ومعمراً بإنشائه القيروان والمسجد فيها. والمسجد والمدينة يرمزان لحقيقة فكرة الغزو العربي وهي التوطين ونشر الدعوة الجديدة. عقبة ربما أزاح الستار في البداية عن الهدف من الفتح الإسلامي، فمحا - إلى حد ما - النموذج الذي عرفه المغاربة في الفتوحات الأجنبية السابقة. وربما حتى في الفتوحات العربية المحدودة في برقة وتونس على عهود عمرو بن العاص وسعد بن أبي سرح ومعاوية بن حديج. إذا كان هؤلاء قد خلصوهم، أو بدأوا ذلك، من الاحتلال البيزنطي فإن عقبة بن نافع جاء بالجديد : المدينة والمسجد. وقد تكتل الغاربة حولهما. وكنا مظهرين حضاريين نشأ عنهما اختلاط العنصرين العرب والبربر، انطلاقاً من فكرة الإسلام وفكرة الاستيطان حول مدينة، ليست على قمم الجبال هذه المرة، بل في السهل. وذلك ما أشعرهم بالأمان خاصة وهي تضم العنصرين معاً.

وأكمل هذه الخطة خلفه أبو المهاجر الذي قدم إلى المغرب سنة 55 هـ - 675 م. وتعاون مع البربر وحسب إليهم الإسلام. ويأتي مرة أخرى عقبة سنة 62 هـ - 682 م. لينطلق فاتحاً حتى طنجة.

ويتوالى قواد الفتح : حسان بن النعمان ثم موسى بن نصير ثم طارق بن زياد الذي نقل الفتح من الضفة الجنوبية للبحر الأبيض إلى الضفة الشمالية. وابتدأ فتح الأندلس ليتكون بذلك الغرب الإسلامي.

وتستمر بلاد المغرب بين المد والجزر تحت ولاية من المشرق يحسنون فتستقر الأوضاع الأمنية والسياسية، ويسبؤون فتضطرب الأوضاع وتستعر الحروب. ويبحث المغاربة عن تأكيد الذات في السلم والحرب على السواء، يبحثون عنها في الحكم والحرية والاحتفاظ بالأرض والحكم والجيش والرأي الديني، ويبحثون عنها وهم يحاربون الذين يعاملونهم كأعداء. ويسرفون في استغلال فكرة «الغزو» بالابتزاز أو بالقتل أو بالاستعباد.

الفتنة هي الظاهرة التي سادت على مدى قرن ونصف من الصراع العربي - الرومي - البربري. ومن معطف الصراع تخرج نواة استقرار هنا وهناك نتيجة أخطاء الخلافة في المشرق من جهة، ونتيجة ظهور خلافات في الفكر الإسلامي التي ابتدأت بعد مقتل عمر بن الخطاب وولاية عثمان، ثم بعد مقتل عثمان وقيام الفتنة الكبرى بين الهاشميين العلويين وبني أمية.

وهكذا نجد أن خلافات الفكر الإسلامي تجد متنفساً لها في المغرب كلما طاردها الخلافة في المشرق. ومع الرأي دائماً السياسة. وكلما حاول رأي سياسي أن ينتصر

ويؤسس له مقعد صدق التجأ إلى السياسة ليؤيد الرأي بالحكم، لينبئ المذهب بالدولة. الأمر طبيعي فإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. ولذلك إذا رأينا في العصر الحاضر دعوات مذهبية إسلامية أو بولشيفية أو اشتراكية أو فاشية في أوروبا أو في الصين أو في العالم الإسلامي تعمل لتتقوى ثم تتخذ السلطة سبيلها إلى القوة، وتقاتل في سبيل ذلك، إذا رأينا هذه الدعوات تسلك هذه السبيل فلنلق نظرة على الماضي العربي والإسلامي لنجد - ونحن في جزيرة المغرب - أن ضغط مركز الخليفة الأموية ثم العباسية على هذا الجزء عن طريق الولاة فجّر :

أولاً : ثورات وارتداداً عن السلطة، وأحياناً عن الدين. وقد تجلّى ذلك في عدد المرات التي صادق البربر فيها العرب، ثم خاصموهم وحاربوهم حتى ظهرت شخصيات قوية كادت تستقل بالحكم دون العرب والروم معاً مثلاً كسيلة والكاهنة.

ثانياً : دولاً تنشأ عن بعض هذه الثورات أو عن تمرد على السلطة المركزية وعلى المذهب الرسمي للدولة المركزية. وتجلّى ذلك في الرستّمين الإباضيين الذين حاولوا إنشاء دولة في الجزائر سنة 140-758 وفي بني مدرار الصفرين الذين لجأوا إلى تافيلالت في المغرب الأقصى في نفس السنة. وقد كانت هاتان الدولتان المذهبتان تجربة تاريخية أفرزتها الجغرافية والوضع الاستراتيجي للمغرب. ورغم صراعهما وقوتها المذهبية، فقد مهدتا الطريق لتجربتين أخريين سُنّتين هما تجربة الدولة الإدريسية التي أفرزتها مذبحة فتح وهي التي دفعت لإدريس بن عبد الله إلى الهرب (172-789) نجاة بنفسه من التصفية التي بدأها الهادي وأكملها هارون الرشيد. هرب بنفسه إلى المغرب وفيها أقام الدولة الإدريسية، والتجربة الثانية هي تجربة إبراهيم بن الأغلب (184-800) الذي ولى السلطة في تونس ثم اشترى السلطة بالتنازل عن حق الولاية في الضرائب وإرسال أموال أخرى إلى مركز الخلافة فولاه هارون الرشيد ليستقل بالحكم بعد ذلك ويكون الدولة الأغلبية.

هاتان التجربتان وضعتا أسساً للاستقرار في هذه البلاد وسيطرة الحكم المحلي الذي بدأ في البداية انفصالاً من الخلافة. ولكن كان هو الممكن للحفاظ على الإسلام من جهة على استقرار الحكم وإقامة أسس الدولة بدلاً من الصراعات التي عمّرت في بلاد المغرب أزيد من قرن ونصف قرن.

فترة ما قبل الاستقرار امتازت بظواهر عديدة في مقدمتها تعاون البربر مع العرب لحرب الروم البيزنطيين ثم تعاون البربر مع الروم - تارة - لحرب العرب. يعني ذلك انعدام الثقة بين العرب والبربر.

لماذا ؟

سؤال قد يحير الباحث غير المدقق وقد يتهم المغرضون المغاربة بالتقلب في المواقف أو بالخروج عن شروط الحلف أو التنكر للجميل. ولكننا لو فكرنا قليلاً لوجدنا أن عامل تأكيد الذات يبرر مرة أخرى، وينصف المغاربة قبل أن يُدينهم. وفي النقط الآتية توضيح للموقف.

1 - كان العصر عصر انقلابات في مركز الخلافة. كانت خلافات كبرى وخطيرة بين ولاة الخلفاء، كل منهم كان يرغب في الزعامة لنفسه والدس للآخرين. لم يسلم من ذلك عمرو بن العاص وهو القائد الكبير والصحابي الجليل. ثم تكاثرت الولاة على المنطقة. مرة كانت تابعة لولاية مصر. ثم فصلت عن مصر. وولي عليها بعد عمرو عبد الله بن سعد بن أبي سرح. ثم معاوية بن حديج، ثم عقبة في ولايته الأولى. فلما ولي الخلافة معاوية بن أبي سفيان لم يول هذا القائد الكبير على شؤون إفريقية التي انطلق يفتحها. وإنما تركه قائداً عسكرياً ومنح الولاية لمعاوية بن حديج. ولا يخفى ما في ذلك من بذور الشقاق بين قائدين كبيرين، وما لذلك من مردودية على البلاد المفتوحة. ثم أعيدت الولاية إلى عقبة بعد انتصاراته الساحقة في الصحراء جنوب تونس والجزائر. وبعد الجهود التي بذلها في الدعوة الإسلامية وتحبيب الإسلام إلى البربر. ومرة أخرى يعزل عقبة رغم انتصاراته السياسية والإسلامية والعسكرية ليولى دينار أبو المهاجر الذي أساء معاملته عقبة. وعاد عقبة مرة ثانية.

2 - العنف الذي كان يستعمله الولاة، خاصة كلما انتقلت الولاية من قائد إلى قائد. وعقبة نفسه الذي كان داعية ورجل دين لم يسلم من استعمال العنف مع البربر في كل مراحل الفتح التي قام بها. ولذلك كان سكان البلاد من روم وبربر يخافونه حتى الذين أسلموا منهم كان في نفوسهم شيء. فقد كان الفاتحون يضطهدونهم وأحياناً يستولون على منازلهم. ومثل هذه الأخطاء هي التي دفعت البربر ليتحالفا مع الروم في معركة تهودة التي استشهد فيها عقبة سنة (64هـ - 684م).

3 - العنف الذي امتاز به بعض المجاهدين ضد الروم والبربر أكثر من أعدائهم. ويبدو أنهم لم يدرسوا النفسية المغربية الأدبية التي لا ترضى بالهوان. فقد غدر عقبة بالذين ناصروه من البربر، ومنهم «كسيلة» أمير قبيلة أوربة فقضى على جيشه، وقد ناصر الدعوة وحارب مع عقبة، واعتقله وكبله في طريق عودته من طنجة. مع أنه كان مسلماً. وأسرها كسيلة في نفسه فألب الأوربيين على القائد العربي، ولم يتخلص من عقاله حتى قاد جيوشاً بربرية هائلة اكتسحت الأراضي التي فتحها عقبة حتى

احتل القيروان وحكمها نحواً من أربع سنوات توالى فيها المعارك بين المسلمين من أتباع كُسيلة ومنهم غير المسلمين من المغاربة والروم وأتباع زهير بن قيس البلوى الذي ولاه عبد الملك بن مروان ولاية إفريقية، حتى قتل كُسيلة ومن معه من قواده في قمس.

كان من الممكن تلافي هذا الصراع الداخلي الذي أهدرت فيه طاقات عربية وبربرية وتأخر الإسلام والتعريب عن أن يعمّا المغرب الكبير فترة من الزمان، كان من الممكن ذلك لو تحلى الفاتحون عن عقلية «الفتح» وتسلبوا بعقلية الداعية والمبشر الذي لا يستعمل القتال إلا للدفاع عن النفس.

ولكن العقلية التي سادت مركز الخلافة الأموية بالأخص ثم العباسية كانت عقلية «الفاتحين» المقاتلين في سبيل امتلاك الامبراطورية لا في سبيل نشر الإسلام.

4 - الانقلابات داخل جهاز الحكم بين الخلفاء والطامعين في الخلافة على عهد بني أمية ثم على عهد العباسيين. ولذلك جذوره منذ توفي عمر، وبدأت الفتنة الكبرى بين أنصار عثمان، وبين مخالفهم من بني هاشم حتى قتل عثمان فازدادت الفتنة اشتعالاً بين علي ومعاوية، انتهت أيضاً بالمذبحة الكبرى ضد علي وبنيه. ثم الفتن التي قامت بين القيادات في دولة بني أمية، سواء منها القيادات المدنية التي كانت تتصارع على الخلافة، أو القيادات العسكرية التي حدثت بين ما كان يسمى بجيش الشام وبين الجيش المتطوع من بقية الجزيرة، هذه الخلافات انطبعت على المغرب. ولذلك فكل متتصر في الولاية كان يستغل انتصاره ضد سلفه وضد قواده. وقد كان لذلك انعكاس على عملية الفتح، وعلى التناوب بين انتصار الفاتحين وانهمامهم، ينتصرون بمساعدة البربر في كثير من الأحيان وينهزمون على يد البربر في كثير من الأحيان. والمغرب والإسلام والعروبة هي الضائعة على كل حال.

5 - اعتبارهم لفتح المغرب عنوة جعلهم يفكرون كثيراً في المغام والمكاسب. المغام والمكاسب من الروم معقولة، لأن هؤلاء غزاة مستعمرون. والحملة الإسلامية جاءت لتحرر المغرب من هذا الاحتلال والاعتصاب. وقد كان الروم البيزنطيون من الغنى، نتيجة استغلالهم للأرض والإنسان، بحيث يجب انتزاع هذا الغنى الحرام منهم لتمويل الجيش الفاتح أو التخلص. أما أن يمتد الحصول على هذه المغام والمكاسب إلى تفكير البربر الفقراء في الغالب، فذلك ما جعل نظرة البربر تتغير من حين لآخر على بعض رؤساء الحملات العربية فلم يروا فيهم دعاة إسلاميين بقدر ما وجدوا فيهم غزاة مستغلين.

وهذا ما طبع سياسة الولاة المسلمين بالتناقض : عقبة نفسه كان الرجل الداعية المسلم، وهو أيضاً الرجل العنيف المقاتل. وأبو المهاجر الذي أساء إلى عقبة، القائد الكبير، هو الذي عامل المغاربة معاملة حسنة وتعاون معهم وحاول اجتذابهم للإسلام. و«سيدي عقبة» باني القيروان ومسجدها العظيم هو الذي يختلف مع أبي المهاجر الذي نافسه على السلطة فيعود إلى المغرب - وطنجة بالذات - في وجه مقاومة شديدة ينتصر فيها ثم يصحب معه أبا المهاجر وكُسيلة مكبلّين بالأغلال. وكُسيلة كان أمير قبيلة أوربة. وتلك إحدى أخطاء الولاة الكبار مع المغاربة الذين لم يكونوا يقيمون لهم وزناً رغم مقامهم وكفاءتهم.

6 - عقلية الغزو وما يتبعه من المغامر والمكاسب فتحت شهية بعض الولاة فولوا أبناءهم وأفراد عائلاتهم. وانطلق هؤلاء يحققون ثروات هائلة بدعوى الغنائم والمكاسب باسم الإسلام. فموسى بن نصير ولّى بعض أفراد عائلته على بعض المناطق وذلك أيضاً ما فعله عقبة وأبو المهاجر. وعندما كان يقوم ولاية الولاة بحروب - يكون المحاربون فيها بربراً - يعودون بسبي كثير ومغانم كثيرة يأخذونها ويحرمون البربر من حظهم مع أنهم هم المحاربون. وذلك ما كان يحفظ قلوب البربر عليهم.

7 - هذه الرؤية المخطئة عن المغرب والمغاربة كلفت العرب كثيراً من الضحايا وأخرت الفتح العربي زمناً طويلاً. وكان من نتيجتها أن قام بين الجانبين صراعان خطيران تميزا بين الصراعات الأخرى التي عرفتها المنطقة على مدى أكثر من قرن ونصف : أحدهما : الحملة التي قام بها كُسيلة، الذي كان نصرانياً - فيما تقول الروايات العربية - وكان زعيماً في قبيلته التي كانت لها مكانة كبيرة. تحالف مع البيزنطيين ليواجه أبا المهاجر. فلما انتصر أبو المهاجر في معركة بتلمسان استسلم كُسيلة وأسلم وأصبح حليفاً للمسلمين. يأتي عقبة في مرحلته الثانية ليقوم بحملته المظفرة حتى وصل إلى طنجة. وبدلاً من أن يستعين برجل ككُسيلة اعتقله مع أبي المهاجر وكبله. وقد انتقم كُسيلة شر انتقام كما قدمنا، فجمع جيشاً كبيراً من قبيلته وآمروا مع البيزنطيين. دارت معركة بين جيوش كُسيلة وجيوش عقبة في جنوب بـسكرة. وهي المعركة التي قتل فيها عقبة سنة 64. واستمرت جيوش كُسيلة تستعيد الأرض وتهاجم المسلمين حتى دخلت القيروان وحكم تونس حتى سنة 69. ولم تنته «ثورة» كُسيلة إلا بعد معارك ضارية خاضها جيوش المسلمين القادمة من الشام بقيادة زهير بن قيس.

ثانيهما : المواجهة التي تمت بين حسان بن النعمان والكاهنة. فقد قامت هذه المرأة الشجاعة بحرب الأرض المحروقة ضد العرب. ودارت معارك طاحنة بين العرب



والبربر فانسحب العرب إزاء هجوم البربر العنيف، وطارد رجال الكاهنة جيوش حسان من الجزائر حتى طرابلس. وعاد العرب مرة أخرى بعد أن تلقوا إمدادات كبيرة فطاردوا جيوش الكاهنة حتى انتصروا عليها بعد حروب طاحنة وخسائر فادحة في الأرواح والأرض. وانتهت قصة الكاهنة بأن قتلت هي الأخرى حوالي سنة 80 هـ.

8 - هذه الأخطاء كلفت العرب كثيراً، فقد فقدوا بلاد المغرب ثلاث مرات في ظرف وجيز وقتل فيها كثير من المجاهدين والمقاتلين وعلى رأسهم الثلاثة الكبار عقبة وزهير وحسان وتأخر فيها الفتح الإسلامي زمناً طويلاً.

وإذا كان المؤرخون يقيمون فترة الفتوح هذه انطلاقةً من تعاطفهم مع العرب أو عداوتهم للعرب، أو انطلاقةً من أنها كانت حروباً إسلامية لنشر الدعوة وبث الإسلام في شعب البربر، فإن الرؤية المنصفة تجعلنا نؤكد أن الفتوح إذا كانت قد بدأت من منطلق إسلامي، فإنها تحولت، مع تحول دولة الإسلام من خلافة تتبع منهج النبي ﷺ في نشر الإسلام بالدعوة، والدفاع عن النفس إذا ووجهت الدعوة بالحرب، إلى نشر الإسلام بالسيف والقوة ومحاولة استئصال الشعوب التي تفترض أن تدعى إلى الإسلام بالدعوة والجدال والتعليم ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

خرج الحكم الإسلامي في عهد الأمويين من الخلافة إلى الملك العضود. وبدأ الولاة يفدون على شمال إفريقيا - ابتداء من مصر في عهد عمرو بن العاص حتى آخر الولاة على المغرب - ومعهم جيوش قوية يستهدفون الغزو والسبي والغنائم. وشجعهم على ذلك أمران :

أولهما : وجود بقية البيزنطيين في هذه الأقاليم. وذلك ما دفعهم إلى تحويل «الفتح المبين» إلى صراع مع الذين كانوا يحملون الصليب ويحاربون تحت رايته، ويسلبون ويغنمون ويحتلون الأرض ويحكمون الإنسان. وكان على المسلمين أن يواجهوا هذا الفتح النصراني الذي واجههم هو أولاً بالعداء.

ثانيهما : غنى المنطقة وعطاؤها، سواء منه ما وجد في حوزة الروم أو ما وجد في حوزة أصحاب البلاد الأصليين.

ولم تنته هذه المرحلة حتى بدأ الدعاة الإسلاميون يستجيبون للفكر الإسلامي الحقيقي. وقد بدأ ذلك بالصراع المذهبي داخل الإسلام كالصراع الخارجي الذي كان هو أيضاً انعكاساً للصراع المذهبي في المشرق. وإذا كان هذا الصراع أدى إلى إنشاء سلطة (شبه دول) في هذه المنطقة أو تلك من المغرب الكبير كما قدمنا، فإنه لم يكن صراعاً مع العرب أو ضد البربر، بمقدار ما كان صراعاً داخل العقيدة نفسها.

ولم يهدأ هذا الصراع الكبير إلا حينما قدم إدريس بن عبد الله إلى المغرب فراراً من بطش العباسيين فتألف البربر وتزوج منهم واتخذ منهم «صحابة» عاملهم كمهاجر إلى أنصار. وكان الإسلام هو الرابطة القوية بينهم.

وإذا كان المغرب قد أكد ذاته - بالطريق العسكرية التي فرضتها ظروف العصر - رغم الصراعات الضارية، سواء على عهد الغزاة الأجانب أو على عهد العرب الفاتحين، فقد أكد ذاته مرة أخرى ابتداء من عهد إدريس بالأسلوب السلمي الذي اتبعه إدريس في نشر الإسلام وتعريب البلاد بالقرآن. ولذلك حديث آخر.